

حرفة الأدب

« للشيخ أبي السامي مصطفى صادق الرافعي »

لا أريد من معنى هذه الحرفة ما يتجاوز به المتكلمون من إملاق أهل الأدب وسوء أثر الزمان عليهم كسوء أثره على بعض الكتب القديمة .. ولا ما يترسلون به من جفاء الأديب واطراحه دون منزلته وتقديره بما ليس من كفايته ، وذهابهم الى أن الأقدار ما برحت تنصرف بسعادته الى غيره ، وبشقاء غيره اليه ، كأنه في لغة الأقدار باب من الطرد والعكس . . . ولا ما يمثّلونه من قبح مكافأة كل اديب لنفسه ، وجنابته عليها وابتغائه بها المرامي في كل ما أجرى اليه من قصد ، واستهدف له من غرض ، كأنها غير نفسه أو نفس غيره ، فما إن يزال ينصب ويتهالك فيما يعاني من أمر الادب لا يرفق بها ولا يستجم لها ، حتى تسترخي جوانبها ، وتتناثر بما فيها من قوة ، فيحتف عليها كل بلاء ، ويمكن منها لكل قضاء ، وهو يرى أن لا بأس على نفسه من شيء ، ولو كان الموت ما دام قد استيقن أن لا بأس في لبه

لا أريد ذلك وما اليه مما عسى ان تبلغ به بلاغة القوم في تفضيل هذه الحرفة ^(١) اذا هم جمعوا أطراف البيان وأخذوا في متاحي القول ؛ وانما أشير الى معنى الحرفة على الحقيقة ، وأريد أن أصف شيئاً من اخلاق جماعة يحترفون من الادب صناعة كسائر المهن ؛ والصناعات التي بها قوام

(١) استوفى الرافعي تاريخ كلمة حرفة الادب وبيان الاطوار الاجتماعية التي تقلبت

عليها في الفصل الاول من المجلد الاول من كتابه تاريخ آداب العرب

العيش لهؤلاء المستأكلين والمتكسبين من السوق والمرتزة لآعلى جهة ما تحتاج اليه الحرفة من نفاق السوق ، وتحريك الصناعة ، وتوفير الغلة مما تزكو به الثروة ويستطيل النماء ، وتتصل أسباب الفائدة ، ولكن على جهة الحاجة اللازمة في كل حرفة الى الأدوات والآلات ، والى التمرس بالاسباب والوجوه ثم الى نزعة اللوئم التي لا بد منها في كثير من أهل الحرف والصناعات عند ما يعرض من اهتضام الحق وبخس المماكسة ؛ وعند تقليب النظر في أحوال الحرفاء وما أفاء الله عليهم من خير وبسط لهم من سعة ؛ وعند اهتمام القلب بكساد إن وقع في الحرفة ، وفوت ان فوات من الربح ، وضعف ان أخذ في اطراف العمل ، وصداع ان ضرب في رأس المال ؛ وعند نصب البدن واستفراغ الذرع وترويق الصبر ؛ فهذا كله وما يكون من بابه ويتصل بأسبابه رأينا في كثير من أهل الأدب الذين اتخذوا من الأدب حرفة يعرفون بها دون أن تعرف بهم ، وذهبوا يتجرون في أخلاقهم على الناس ، ولعل أحدهم أن يكون اسوأ من الحمق ، واذم من الحسد ، وأقبح من الجهل ؛ ثم لعله ان يكون مع ذلك أضعف من أنت واجد ممن يدعي الفهم ، ويتنبل بالعلم ويتنشق بالأدب ، ولكنه يمضي ممدوداً له في غيّه ، وينطلق منفساً له في باطله ، ولا يزال قد ملكه السرف ونزت به الضراوة ، وبعث منه التسلط ، حتى يأخذ في كل فن من الحمق ، ويضرب في كل ناحية من السخف ، ذريةً على هذا ونفاسة على ذلك وتربصاً بغيرهما . ثم هو في جماع ينزع الى لوئم الحرفة ويتسكع في كل وجه من السفه منتحلاً ما شاء ان يتنخل

من الأسماء يصنع منها المعاذير ، ويستتر بها على نفسه فضيحة من الاخلاق
كان الرأي ان يتوقاها قبل ان تظهر ، لا ان يحاول سترها وقد ظهرت ؛
فربما زعم انه منتقد أو متصفح أو هو يصلح عيباً أو يعني مرة ولا بداً
في هذا ومثل هذا بزعمه من سورة حمق ونزوة غضب ومن كلمة كزجرة
المؤدب ، وأخرى كغمزة المثقف ، ونحوها مما يكون انتقاماً ويسمى في
مذهبهم انتقاداً ولعنناً ، ويسمى في اصطلاحهم طعنناً . . . وربما كان
الرجل من الحمالة وفساد الاخلاق بحيث يرى سوء الادب أدباً ، والجنف
عن الحق الواضح قصداً ، والتنطع فيما يجهل علماً ، وبحيث لا يرى له
حجة ظاهرة على أحد الا في العناد وركوب الهوى والمخاطرة بالنصفية
والمعدلة فمن ثم لا يرى عليه لأحد حجة ظاهرة ، ولا يرى ان احداً
يقوم له في الحجاج او يثبت معه في الخصام ، او يرجح بالحق عليه وعلى
باطله وهو ما هو ؟ غي فذم الى الجفاء والغلظة والى السجف والغسولة
وتراه على ذلك يجمع الى ضعف الرأي قوة العجب والى قلة الصواب كثرة
التخطئة والى بطء الفهم سرعة الحكم ويرى كأن الله لم يخلق لأحد من
الناس عقلاً الا على قياس من رأسه . . . فان أنت جئتته بما يعلمو عن
فهمه ويخرج عن طاقته بادر فقطع فيه برأيه وجزم عليه بالركاكة والإحالة
والإفساد وسوء التعبير . ولمة ؟ لانه هو لا يفهمه فلا يوجد من يفهمه
البتة اذ كان ما زاد عن قياس رأسه لم يكن الى العقل بل الى الجنون . .
وان هو أراد ان يبت الرأي في كلام من الكلام ويتعسف في الجزم
عليه بانه محال لا يستقيم ، مفسد لا يصح ، مضطرب لا يتماسك ، زعم

لك بلا حياء انه لا يفهم . وعليك أن تكون ذكياً بالوراثة منطيقياً بالفطرة لتنتهي من هذه المقدمة المسامة . . . الى النتيجة الطبيعية . . . فتقطع بان ما لا يفهمه هو لا يفهم بته إذ لا يوجد من يستبطن حقيقته في الجليل كله ما دام علم المستولوجيا (الانسجة) لا يقيم عليه البرهان بان رأسه غير ذلك الرأس الذي نصبه الله في أرضه مقياساً للعقول . . . !

وبعد فان من لو لم هذه الحرفة ان ترى صاحبها ساقط الحرمه ذمر المرؤة ، زري النفس بذيئاً متعبراً فخاشاً في هجائه أستغفر الله بل في انتقاده . . . يضع لسانه حيث شاء من عرض أو خلق أو صيغة لا يبالي في كل ذلك ان يكون صدق وبرا أو كذب وفجراً ، بل همه ان يكون قد أوجع وأمض ، وطبق المفصل الذي يحز فيه لا ينكر من ذلك على نفسه نكيراً ولا يغير منه تغييراً . ولا بدع فاني رأيت أن أحداً من الناس لا يخلو من الفضيلة الا كان فيه ما يعتده في رأي نفسه فضيلة وان فضيلة اللئيم التي يراها أن لا يخذله لؤمه دون الاستطالة والتمكن ؛ فلو كذب وعق وكفر النعمة ، وغمط الحق ، وجاء بكل مخزية ومنديية ، ثم كان له أن يستطيل ويفلب ، لقام ذلك عنده مقام الصدق والمبرة والشكر والإقرار والاحسان ، ولكان عند نفسه أفضل أهل الفضائل جميعاً ؛ فهو لذلك لا يتورع عن قول بذيء ولا يتنزه عن فعل ذني ولا يأبى ان يكون أسخف الناس عند الناس اذا كان من نفسه ما عرفت

والغرور نعوذ بالله منه فهو الأم اللؤم في محترفي الادب خاصة قلما يؤتى أحدهم الا من جهته ، ولا يعرض له الشيطان الا من قبله ؛ وانه

لجنون هؤلاء العقلاء اذا كان لكل امرئ شعبة من الجنون . فلو رأيت ذلك المغرور ، ورم أنفه ، ان يكون أحد أولى منه بالحق أو أحق بالصوت فليج في العناد ، وجنح الى الباطل ، وأصر واستكبر استكباراً ؛ ولو رأيتَه قد زين له الغرور وسوّلت له نفسه الخبيثة أن يهتف بأحد هتفة مشؤمة أو يقوم فيه مقاماً مشهوداً فجعل يفتري الكذب ويصنع الباطل وينقض الحق ويميل الصدق حتى يصف لك أفضل خلق الله فلا تراه في الفاظه إلا غثاً بارداً سمجاً ، وأكرم خلق الله فلا تعرفه إلا كزاً لثياً متوقفاً ، وأعلم خلق الله فلا تصيبه إلا جاهلاً غيباً فذماً ، وأفصح خلق الله فلا تجده إلا عياً بكيناً حصراً ؛ وهذا لا يزال يجترئ على الله ، ويمثل بخلقه هذا التمثيل ، ويمسخ منهم هذا المسخ حتى لكأن الله إله المخلوقين وهذا المغرور اله الاخلاق ، وكان لله جل شأنه قوة الخلق ولهذا الأحق في معارضتها قوة الاختلاق

ولو قيل لي إن في أديب من الأدباء مائة فضيلة وفيه الغرور ، لما صدقت أن تكون فيه مع هذه الرذيلة فضيلة ؛ فان الغرور لا يكون إلا من سوء تقدير المرء لنفسه وتقدير نفسه للناس ، وهما خصلتان لا غاية لهما إلا تجاوز غاية المدح وغاية الذم ؛ وما أسرف امرء في مدح الآ كاذباً ولا أفرط في ذم الآ كاذباً ومتى كانت مع الكذب فضيلة ؛ ولولا هذا الغرور ما استنكف المخطئ ان يفيء الى الصواب ، والضال ان يشوب الى الحق والجاهل ان ينزل الى حيث يتعلم ، والنافس ان يخرج الى طلب الكمال من غيره وهذا كله تراه على أهونه وأقله في عوام الناس وطغاهم

وحثالتهم من لا يثبتون على الباطل إلا بمقدار ما يفهمون الحق ؛ ولكنه على أعظمه وأتمه في هؤلاء الذين يحترفون الأدب لأنهم أهل زلافة ولسن وصنعة من الكلام ، وإنما قلوبهم عند النضال في حصون من وراء أفواههم فلا تزال تصرع دون قلوبهم كل حجة ، أو ترد على أعقابها مهزومة أو كالمهزومة وهيئات هيئات ان تصل اليها مطلقة ، أو تنزل فيها ان نزلت إلا موثقة . وصنعة المغرور ان يكون لسانه فوق عقله ، وتكون نفسه تحت لسانه ، فكيف تراه يكون لو تمت له مع هذه الصفة قوة اللسان وشرعة البديهة وشدة العارضة واستجابة المعاني وهي أخص أدوات حرفة الأدب ؟

على أني يعلم الله ما رأيت كالغرور من هؤلاء الادباء يذم لك الغرور وينتفي منه ويعتده السيئة المجترحة التي لا تكفر عنها الحسنة بالغة ما بلغت ، ثم لا تجده الا أشد الناس كلفاً بأن يكون كل ما يؤثر عن المغرورين مسند اليه ، متظاهراً عنه وأن تفشوله بذلك فاشية في الألسنة وتذهب عنه القالة في المجالس ليكون مرهوب الجانب ، متقى اللسان ، مخشي المعرة مستعاضاً بالله منه ، وليعرف أنه لا يضع جانبه لخصم ، ولا يغمز فيه عدو غميرة ، وليس أحد معه أبداً الا على خطأ ، وليس هو مع أحد أبداً الا على الصواب ؛ وأنه على ذلك سريع البادرة قبيح الازراء موجع القذع حاصد اللسان ؛ وان من حمل نفسه عليه فقد حملها على التهلكة وأخطرها لما لا يملك له دفعاً دفعاً ، وطلب بها ما ان المعجزة كلها في أيسره ؛ وان من أخذ اليه وشد به يده والتمس مناصرته ، فذلك

الذي يضرع كل عدو الى أمانه ، ويخز كل قلم ساجداً يطلب المغفرة من لسانه . الى صفات أخرى من أمثال هذه لا يكون الغرور بدونها غروراً ، ولا تكون هي في أحد الا بخذلان من الله

فما أشأم حرفة الأدب على أهلها وعلى الناس من أهلها . . . على أنه ما من خير الا وفيه جهة قريبة من الشر تجعله كله شراً ان أُريد ، ولا من شر الا وفيه جهة من الخير تجعله كله خيراً ؛ فالأمور بأسبابها ، والآداب بأخلاق أربابها ، وقلما نبغ أديب الا كان انساناً فوق الانسان ، واذا اعتبرت أخلاقه لا تراه الا أقرب الى الملك أو أقرب الى الشيطان



كيف نقيس الزمان

الزمان ! ما هو الزمان ؟

يمر بنا ونمر به ، يُحِيننا ونُحِيه ، يلاشِيننا ونلاشيه ، ولا نعرف ماهية كيانه . ويعبر جسر الحياة تاركاً بين جوانب الأحياء جروحاً ، نائراً على سواد الشعر بياض القدم ، طابعاً على الجباه الوضاعة تجعدات المجاهدة والممل ، دون أن نحاول ارهابه او الاقتصاص منه : الشيخوخة قبلة الزمان للبشر . لكن ماهي الشيخوخة ، وما هو الارهاب ، وماذا يعني العقاب ؟

والزمان . . . ما هو الزمان ؟

أراد لِبَنْتَز تحديدده فقال فيه أنه « تتابع الاشياء المتواردة » . وسواء